

## أصحاب الإجماع.. قراءة في التاريخ والفقه والثقافة ١ - ٢

■ الشيخ زكريا داوود\*

من المواضيع المهمة التي يدرسها الفقهاء في علمي الدراية والرجال هو البحث عن الصحة والضعف بالنسبة للنص الديني الوارد عن الرسول ﷺ والأئمة الطاهرين (عليهم السلام)، وللتحقق من صحة صدور النص الديني، كان لابد من البحث عن الرواة الذين رووه، وهنا تأتي الأهمية الكبرى لعلم الرجال، الذي يبحث في سند الحديث، أي في الرواة الذين أسند إليهم النص، وتشخيصهم ذاتاً أو وصفاً مدحاً أو قدحاً<sup>(١)</sup>، فإذا ثبت كون الرواة من الثقات فإن النص يتصف بالصحة والقبول، وبالتالي يرتب الفقيه عليه الأثر من حيث اعتماده كدليل على الحكم، أما إذا ثبت من خلال البحث كون الرواة أو بعضهم غير ثقة فإن الحديث يوصف بالضعف، ويوصف بإحدى الأوصاف المذكورة للحديث الضعيف مثل الإرسال أو القطع أو الاضطراب أو المنكر، وغيرها من أوصاف الحديث الضعيف.

وتتضح أهمية علم الرجال في كونه المدخل الذي يستند إليه الفقيه في تصحيح الدليل على الحكم المستتب، ويختلف عن علم الدراية في كونه يبحث في الرجال من حيث مشخصاتهم، أما علم الدراية فهو يبحث عن سند الحديث ومتمه وكيفية تحمله وآدابه<sup>(٢)</sup>، من حيث الإشارة إلى بيان انقسام الحديث من جهة السند إلى الأقسام المعروفة، فالمذكور فيه أن ما كان جميع رواته عدولاً إماميين ضابطين فهو الصحيح عند المتأخرين وهكذا وليس في علم الدراية تشخيص حال راو أصلاً<sup>(٣)</sup>.

ومن البحوث المهمة التي طرقها الفقهاء في كتبهم الرجالية، والتي تلقي بظلالها على كل أبواب الفقه، تصحيح الروايات الواردة عن أصحاب الإجماع، وهم ثلاث طبقات من أصحاب الأئمة المعصومين (عليهم السلام)، فقد أجمع الفقهاء على تصحيح النص الديني الذي رواه أحد رجال الطبقات

\* عالم دين - السعودية.

الثلاث، من حيث أنا لا نحتاج للبحث عن الرجال الذين يقومون بعد أصحاب الإجماع، وبهذه المقولة يمكن الاعتماد على كثير من النصوص الدينية التي لم تثبت صحتها من طرق أخرى، ويمكن للفقيه بعد ذلك الاعتماد على هذه الرويات في عملية استنباطه للأحكام الشرعية.

## شخصيات أصحاب الإجماع

في الفقه الإمامي هناك ثلاثة اتجاهات في النظر للنص الديني من حيث الصحة أو الضعف، والقبول والرد، ولكل اتجاه مبرراته التي يوردها لتدعيم نظريته، ولعل السبب في تنوع الآراء حول النص المروي عن الأئمة الطاهرين (عليهم السلام) هو ما تعرض له حملة الحديث من أصحاب الأئمة (عليهم السلام) من المطاردة السياسية من قبل الأنظمة الحاكمة آنذاك، كالأمويين والعباسيين، وما يرافق ذلك من بروز تيارات فكرية تترصده حركة الأئمة (عليهم السلام)، وتسعى لتشويه الفكر الرسالي عبر الدس والتزييف، وتكمن تلك الاتجاهات فيما يلي:

**الاتجاه الأول:** يرى صحة جميع الرويات الواردة في كتب المحدثين الشيعة، كالكتب الأربعة وغيرها، ويتزعم هذا الاتجاه الإخباريون حيث يورد المحدث البحراني (ت ١١٨٦هـ) الذي يعتبر رأس الإخباريين كلمات فقهاء عديدين لتثبيت هذه المقالة، وهي أن جميع أحاديثنا -إلا ما ندر- ينتهي إلى أئمتنا الاثني عشر (عليهم السلام) وهم ينتهون فيها إلى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)<sup>(٤)</sup>.  
الاتجاه الثاني: صحة الرويات الواردة في الكتب الأربعة فقط، أما غيرها فتحتمل الأمرين، وقد قال بهذا الرأي بعض الإخباريين والأصوليين..

**الاتجاه الثالث:** تقسيم الحديث المروي في جميع المدونات الحديثية إلى الأقسام الأربعة المعروفة وهي:

- ١ - الصحيح.
- ٢ - الحسن.
- ٣ - الموثق.
- ٤ - الضعيف.

وقد تبنت هذا الرأي المدرسة الأصولية، وحشد الفقهاء الأصوليون كل طاقاتهم للتدليل عليه في مقابل الرأي الأول وكان الوحيد البهبهاني (ت ١٢٠٦-١٢٠٨هـ)، وهو شخصية مؤسسة داخل المدرسة الأصولية ممن يدعمون هذا الرأي في مقابل المدرسة الأخبارية التي توطنت مدينة كربلاء في القرنين الحادي عشر والثاني عشر وكان البهبهاني مجاوراً لزعيم المدرسة الأخبارية المحدث البحراني، في كربلاء المدينة المقدسة، ودارت سجالات فكرية عميقة بين الزعيمين، كانت الغلبة لرائد المدرسة الأصولية التي أرسى بذلك قواعد الفكر الأصولي وأوقف زحف المدرسة الأخبارية.

لكن هذه القاعدة وهي تقسيم الأحاديث إلى الأقسام الأربعة المذكورة سارت إلى جنبها

قاعدة أخرى مفادها تصحيح الروايات الواردة عن أهل البيت (عليهم السلام)، إذا كان راويها أحد الشخصيات الذين عرفوا فيما بعد بأصحاب الإجماع، وهم ثمانية عشر شخصية ممن صحبوا الأئمة الطاهرين (عليهم السلام)، توزعت على ثلاث طوائف ذكرها علماء الرجال والفقهاء الذين بحثوا في علمي الدراية والرجال، لكن أول من ذكر لفظ (أصحاب الإجماع) هو العلامة الشيخ أبو عمرو محمد بن عمر بن عبد العزيز الكشي (ت ٣٨٥هـ) في كتابه (معرفة الناقلين عن الأئمة الصادقين)، فقد وزع أصحاب الإجماع على ثلاث طوائف حيث قال: أجمعت العصابة وأجمع الأصحاب على تصديقهم والإقرار لهم بالفقه وتصحيح ما يصح عنهم وهم طوائف ثلاث: الطائفة الأولى: من ذكرهم تحت عنوان تسمية الفقهاء من أصحاب أبي جعفر وأبي عبدالله (عليهما السلام) فقد قال بالنص ما يلي:

إجمعت العصابة على تصديق هؤلاء الأولين من أصحاب أبي جعفر وأصحاب أبي عبدالله (عليهما السلام) وانقادوا لهم بالفقه، فقالوا: أفتقه الأولين ستة: زرارة، ومعروف بن خربوذ، وبُريد، وأبو بصير الأسدي، والفضيل بن يسار، ومحمد بن مسلم.. قالوا وأفتقه الستة زرارة.

الطائفة الثانية: من ذكرهم تحت عنوان تسمية الفقهاء من أصحاب الإمام الصادق (عليه السلام) فقال: أجمعت العصابة على تصحيح ما يصح عن هؤلاء وتصديقهم لما يقولون وأقروا لهم بالفقه من دون أولئك الستة الذين عدناهم وسميائهم ستة نفر: جميل بن دراج، وعبدالله بن مسكان، وعبدالله بن بكير، وحماد بن عثمان، وحماد بن عيسى، وأبان بن عثمان، قالوا: وزعم أبو اسحاق الفقيه وهو ثعلبة بن ميمون أن أفتقه هؤلاء جميل بن دراج، وهم أحداث أصحاب أبي عبدالله (عليه السلام).

الطائفة الثالثة: الذين ذكرهم تحت عنوان تسمية الفقهاء من أصحاب أبي إبراهيم وأبي الحسن الرضا (عليهما السلام)، فقال: أجمع أصحابنا على تصحيح ما يصح عن هؤلاء وتصديقهم وأقروا لهم بالفقه والعلم وهم ستة نفر آخر دون الستة نفر الذين ذكرناهم في أصحاب أبي عبدالله (عليه السلام) منهم: يونس بن عبدالرحمن، وصفوان بن يحيى بياح السابري، ومحمد بن أبي عمير، وعبدالله بن المغيرة، والحسن بن محبوب، وأحمد بن محمد بن أبي نصر... وأفتقه هؤلاء يونس بن عبدالرحمن وصفوان بن يحيى<sup>(٥)</sup>.

وقد قدمت هذه الطوائف الثلاث بجميع شخصياتها خدمات كبيرة لنشر الوعي الرسالي وفكر الإسلام الأصيل متمثلاً في خط أهل البيت النبوي، وكان من الطبيعي أن يتعرضوا للكثير من العقبات والأزمات التي تضعها السلطات المستبدة في طريق نشر الوعي الرسالي، وهذا ما نراه من خلال سجن بعض هذه الشخصيات أو مطاردتها، كما حدث لمحمد بن أبي عمير (ت ٢١٧هـ)، وغيره من أصحاب الأئمة الطاهرين (عليهم السلام)، ولعل السبب الذي جعل هذه الشخصيات العظيمة تأخذ مكانة رفيعة في التراث الشيعي الإمامي هو أنها قدمت الكثير من العطاء الذي عجز عنه غيرهم، في وقت كان التقرب لأهل البيت النبوي يعد جريمة في عرف السلطات المستبدة.

وقد وردت نصوص إمامية تمدهم كثيراً من هذه الشخصيات، تختلف في أسلوبها عن غيرها من النصوص التي جاءت مادحة في غيرهم، ولكن قبل أن نستعرض تلك النصوص المادحة، نقرب قليلاً من ملامح هذه الشخصيات لنرى ما هو الجامع المشترك بينهم؟ ولماذا تبوأَت المكانة العالية في الفكر الشيعي الإمامي؟ وما هو الدور الذي قام به هؤلاء داخل المنظومة الفكرية والعقيدية الإمامية؟ متى تحقق الإجماع؟ ما هي أهمية هذا الإجماع؟ ما هي المكانة الإجتماعية والسياسية التي كان يمثلها أصحاب الإجماع في كل مرحلة عاشوها؟ وهناك الكثير من التساؤلات التي تحتاج لأجوبة عميقة لعل بعضها تتوضح عند التعرض لسيرتهم الذاتية ولو بصورة مقتطفات وهي كما يلي:

### أصحاب الإمام محمد الباقر والإمام الصادق (عليه السلام):

هناك المئات من الشخصيات التي صحبت الإمامين الباقر (ت ١١٤هـ) والصادق (١٤٨هـ) (عليه السلام)، لكن الذين برزوا وأصبحت لهم مكانة سامية عند الإمامين (عليه السلام) أقل من ذلك، خصوصاً وأنهما أسسا جامعة دينية كبيرة خرجت الآلاف من الفقهاء والمحدثين، وبالأخص في السني الأخيرة من حياة الدولة الأموية والأولى من الدولة العباسية، وقد صحب العديد من المحدثين الإمام الباقر (عليه السلام) وأخذوا العلم منه، وعند وفاته رجعوا إلى ابنه الإمام جعفر بن محمد (عليه السلام)، ولعل الطائفة الأولى ممن أجمع الفقهاء على الأخذ عنهم والاعتراف بالمكانة السامية في الفقه هم ستة أشخاص مثلوا ذروة العطاء والتضحية وكانوا في غاية التقوى والورع والخشية لله سبحانه وتعالى، وقد مارسوا دوراً مهماً في الدفاع عن عقيدة أهل البيت (عليه السلام)، وهم:

١ - زرارة بن أعين بن سنسن الشيباني بالولاء الكوفي، اسمه عبد ربه (ت ١٤٨هـ)، وقد مثل زرارة دوراً بارزاً في التاريخ الإسلامي، وكان من الدعاة المخلصين لأهل البيت (عليه السلام)، فقد ألف العديد من الكتب التي سعت لتوضيح معالم العقيدة الإسلامية بصورتها النقية الصافية من أقدار التوجهات الفلسفية والصوفية التي انتشرت في عهد الباقر والصادق (عليه السلام) وهذا ما نلاحظه في تأليفه كتاب الاستطاعة والجبر، القضية التي شغلت العقل العربي آنذاك، وبسبب حركته الدؤوبة في نشر الوعي الإسلامي، فقد تعرض لعداء الكثير من التوجهات الفكرية والسياسية والعقائدية التي لم يعجبها ذلك النشاط والجد في نشر الوعي وتعرية الأفكار المنحرفة.

وقد مارس زرارة دوراً كبيراً وبالأخص داخل الوعي الشيعي، حيث تخرج على يديه عمالقة الفكر والفقه الشيعي كععض أصحاب الإجماع، فقد نقل ابن أبي عمير قال: قلت لجميل بن دراج (توفي في حياة الإمام الرضا (عليه السلام)) ما أحسن محضرك وأزين مجلسك، فقال: أي والله ما كنا حول زرارة بن أعين إلا بمنزلة الصبيان في الكتاب حول المعلم<sup>(١)</sup>، وعرفاناً من

الأئمة الطاهرين للدور الكبير الذي قام به زارة وردت نصوص تمدحه وتشيد بما قام به من جهد فعن سليمان بن خالد الأقطع، قال سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول: ما أحد أحى ذكرنا وأحاديث أبي عليه السلام إلا زارة وأبو بصير ليث المرادي ومحمد بن مسلم وبريد بن معاوية العجلي ولولا هؤلاء ما كان أحد يستتبط هذا، هؤلاء حفاظ الدين وأمناء أبي عليه السلام على حلال الله وحرامه، وهم السابقون إلينا في الدنيا والسابقون إلينا في الآخرة<sup>(٧)</sup>.

٢ - معروف بن خربوذ القرشي (مكي) كوفي، من الشخصيات العظيمة التي حازت الاحترام والتقدير داخل المنظومة الشيعية والسنية، حيث روى له البخاري حديث وعده ابن حبان من الثقات على غير المؤلف من مواقف علماء السنة تجاه أصحاب أهل البيت النبوي الطاهر عليه السلام، حيث يعتبر التشيع لأهل البيت النبوي جرماً يقتضي التضعيف وعدم الاعتبار، لكن معروفاً خرق القاعدة وأصبح من الرواة الثقات، أما في المنظومة الإمامية فهو قطب وفقهه وأحد العباد كما نقل الفضل بن شاذان (ت ٢٦٠هـ)، قال دخلت على محمد بن أبي عمير، وهو ساجد فأطال السجود، فلما رفع رأسه وذكر له طول سجوده، قال: كيف ولو رأيت جميل بن دراج ثم حدثه أنه دخل على جميل بن دراج فوجده ساجداً فأطال السجود جداً فلما رفع رأسه، قال له محمد بن أبي عمير: أطلت السجود فقال: لو رأيت معروف بن خربوذ<sup>(٨)</sup>.

٣ - أبو بصير الأسدي، ليث ابن البخري المرادي (ت ١٥٠هـ)، وهو فقيه محدث، له مكانة كبيرة عند الأئمة الطاهرين عليهم السلام، ونظرة بسيطة للكتب الحديثية وخصوصاً الكتب الأربعة نلاحظ مئات الروايات التي نقلها أبو بصير عن أهل البيت عليهم السلام، كما أنه من وجوه وأعيان الشيعة في الكوفة، وقد تعرض أبو بصير بسبب دفاعه عن أهل البيت عليهم السلام، للكثير من العقوبات التي وضعت في طريق دعوته، ومناصرته للعترة الطاهرة.

وفي قبال هذه الحملة التي تعرض لها أبو بصير من قبل الفئات المناوئة للخط النبوي الشريف المتمثل في أهل البيت عليهم السلام، وخصوصاً أصحاب التوجهات الفكرية التي كان أبو بصير يعري فكرها، فقد وردت نصوص عن الأئمة عليهم السلام في تبرأة الرجل من التهم التي ألصقتها الخصوم به، كالخبر الذي نقله جميل بن دراج قال: سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول: بشر المخبتين بالجنة بريد بن معاوية العجلي وأبو بصير ليث بن البخري المرادي ومحمد بن مسلم وزرارة أربعة نجباء أمناء الله على حلاله وحرامه، لو لا هؤلاء انقطعت آثار النبوة واندرست<sup>(٩)</sup>.

٤ - بريد بن معاوية العجلي، عربي، كوفي، توفي في زمن الإمام الصادق عليه السلام، وجه من وجوه أصحاب الأئمة الطاهرين عليهم السلام، وفقهيه محدث، وقد عد في النصوص الواردة عن أهل البيت عليهم السلام من الأوتاد الأربعة، ومارس دوراً ريادياً في الدفاع عن العقيدة الإسلامية وتوضيح معالم فكر أهل البيت عليهم السلام، ونظرة بسيطة للكتب الأربعة وغيرها تبين أن الكثير من النصوص التي نقلها توضح معالم العقيدة في كل جزئياتها، والرد على أصحاب البدع من المذاهب المخالفة، كالخطابية الذين ناصبوا بريداً العدا، ومارسوا لتسقيطه شتى السبل وصلت لممارسة

الضغوط الكثيرة على الإمام الصادق (عليه السلام)، حتى يقول فيه ما يوافق أهدافهم ورؤاهم. وعندما يعالج الإمام (عليه السلام) هذه الضغوط، وينظر للمصلحة التي يقتضيها وضع بريد بن معاوية، ويرى أن حقن دم بريد وحفظه من الأزمات الاجتماعية التي تثيرها التيارات الفكرية المعادية لتعاليم أهل البيت (عليهم السلام)، يقتضي إرضاء بعض تكتلات المجتمع المؤثرة والتي يمكن أن تقوم بأمر تصل لحد التصفية الجسدية لو لا تدخل الإمام بالطريقة التي تزيل من نفوسهم الأحقاد، وكان بريد قد قضى نحبه مقتولاً بسبب تعصب بعض هذه التيارات، وهذا ما تبرره وجود تلك النصوص التي تدم بريد وأمثاله من عملاقة الفقه والفكر الرسالي، يقول العلامة عبدالله المامقاني في كتابه تنقيح المقال (١٢٩٠-١٣٥١هـ) عندما يستعرض ما ورد في ذم بريد، كالنص المنقول عن محمد بن مسعود عن جبريل بن أحمد عن محمد بن عيسى عن يونس عن مسمع كرد بن أبي سيار قال سمعت أبا عبدالله (عليه السلام) يقول: لعن الله بريداً ولعن الله زرارة: هذه الأخبار (الذامه) لا تقاوم الأخبار المزبورة (المادحة) لا لما في التحرير الطاووسي من المناقشة في سندها حيث قال: وقد روي خلاف مدحه شيئاً في طريقه محمد بن عيسى، مشيراً بذلك إلى ما ذكروه من عدم الاعتماد على ما تفرد به محمد بن عيسى عن يونس، بل لوجود قرائن على صدور أمثال ذلك في حق هؤلاء وأضرابهم حقناً لدمائهم وإطفاءً لنار حسد حسادهم وإزالة لغيظ أعدائهم أعداء الله عنهم كما لوح إلى ذلك بقوله في خبر القبقاق المتقدم: ولكن الناس يكثرون عليّ فيهم فلا أجد بدأً من متابعتهم<sup>(١٠)</sup>.

ويبدو أن الإمام الصادق (عليه السلام) كان يشعر بقوة الحملة الإعلامية المضادة التي تشنها التيارات الفكرية والاجتماعية تجاه هذه الشخصيات الرسالية المنشغلة بالهم الفكري والعقائدي والاجتماعي، ولا شك أن السياسة المعادية لأهل البيت (عليهم السلام)، كانت تغذي هذه الحملة المضادة لرموز الفكر الرسالي أمثال بريد بن معاوية العجلي، وزرارة بن أعين وأبو بصير، وهذا ما جعل الإمام الصادق (عليه السلام) يقوم بحملة مضادة لرد الاعتبار لهذه الشخصيات، ولعل النص التالي يبرز مدى المعاناة التي تعرض لها الإمام وأصحابه الخالص أمثال بريد حتى من داخل المجتمع العقائدي، الذي ولا شك تتأثر رؤاه بالتيارات الفكرية الأخرى.

عن محمد بي أبي عمير عن جميل بن دراج قال دخلت على أبي عبدالله (عليه السلام)، فاستقبلني رجل خارج من عند أبي عبدالله (عليه السلام)، من أهل الكوفة من أصحابنا فلما دخلت على أبي عبدالله (عليه السلام)، قال: لقيت الرجل الخارج من عندي فقلت: بلى هو رجل من أصحابنا من أهل الكوفة، فقال: لا قدس روحه ولا قدس مثله، انه ذكر أقواماً كان أبي أئتمنهم على حلال الله وحرامه وكانوا عيبة علمه وكذلك اليوم، هم عندي مستودع سري أصحاب أبي حقاً، إذا أراد الله بأهل الأرض سوءاً صرف بهم عنهم السوء، هم نجوم شيعتي أحياناً وأمواتاً يحيون ذكر أبي (عليه السلام)، بهم يكشف الله كل بدعة ينفون عن هذا الدين انتحال البطلين وتأول الغالين، ثم بكى، فقلت: من هم؟ فقال: من عليهم صلوات الله ورحمته

أحياناً وأمواتاً بريد العجلي وزرارة وأبو بصير ومحمد بن مسلم، أما أنه يا جميل سيستبين لك أمر هذا الرجل عن قريب، قال جميل: فوالله ما كان إلا قليلاً حتى رأيت ذلك الرجل في أصحاب أبي الخطاب، فقلت: الله يعلم حيث يجعل رسالته، قال جميل: وكنا نعرف أصحاب أبي الخطاب بيبغض هؤلاء رحمة الله عليهم<sup>(١١)</sup>.

يوضح هذا النص الكثير من الإشكاليات، التي تعرضت لها مسيرة الدعاة إلى الله، وحجم الضغوط التي تعرضوا لها، كما أن النص يرفع وتيرة مدح هؤلاء الأشخاص إلى درجة لم نعهدها في نصوص أخرى مشابهة تعرضت لحل ذات الإشكالية، ولعل شدة التأكيد التي رافقت لهجة الإمام عليه السلام في مدح هؤلاء، توحى بأنها في صدد تنفيذ حملة تشويه كبيرة تعرضت لها تلك الشخصيات الرسالية، الأمر الذي يبرر التأكيد في تبرأتهم في بداية حديثه وفي ختامه، كما أن بكاء الإمام عليه السلام، يبرز حجم معاناته من تلك الحملة التشويهية في ذات الوقت الذي يؤكد فيه قوتها وشدتها واستمرارها.

٥ - الفضيل بن يسار أبو القاسم البصري سكناً، الكوفي أصلاً، وصفه الذين تعرضوا لسيرته بأنه ثقة عين جليل القدر، توفي في أيام الإمام الصادق عليه السلام، وقد عده الشيخ المفيد (ت ٤١٣هـ) في رسالته العديدة: من الفقهاء الأعلام والرؤساء المأخوذ منهم الحلال والحرام والفتيا والأحكام الذين لا يطعن عليهم ولا طريق لذم واحد منهم<sup>(١٢)</sup>، بل النصوص التي وردت في مدحه تشبه تلك النصوص التي وردت في مدح سلمان الفارسي (ت ٣٥هـ/ ٦٥٥م)، كقول الإمام الصادق عليه السلام: رحم الله الفضيل بن يسار وهو منا أهل البيت<sup>(١٣)</sup>، وكقوله: إن الأرض لتسكن إلى الفضيل بن يسار<sup>(١٤)</sup>.

وهذا الأمر يدل على المكانة التي كان يحظى بها الفضيل وحجم الدور الذي قام به في خدمة الدين ونصرة الفكر الرسالي الذي مثله أهل البيت النبوي الطاهر عليهم السلام، وتبرز هذه النصوص كذلك جانباً من شخصية الرجل ومستواه الفقهي وإيمانه العقائدي العميق بفكر الأئمة الطاهرين عليهم السلام، حيث قد وردت الكثير من النصوص التي عالجت الإشكاليات العقائدية التي تعرض لها المجتمع الشيعي والحلول التي خرجت من نبع الأئمة الطاهرين عليهم السلام عن طريقه، وتوصيف فضيل بأنه من أهل البيت عليهم السلام، يحمل دلالة كونه مشكوك الهوية عند قسم من الفئات الاجتماعية، ويبدو هذا واضحاً إذا عرفنا البيئة الاجتماعية المحيطة بتحريك الفضيل، وهي البصرة التي عرفت بالانحراف عن أهل البيت عليهم السلام، بل احتضنت العديد من الشخصيات التي كانت صريحة في عدائها للأئمة المعصومين عليهم السلام، ولعل تاريخها مع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ت ٤٠هـ) عليه السلام، وحربها له في معركة الجمل خير دليل، كل ذلك كان يقتضي الإشادة بالمستوى والمكانة التي بلغها الفضيل عند الأئمة عليهم السلام حتى عُد من أهل البيت عليهم السلام.

٦ - محمد بن مسلم الطائفي الثقفى (ت ١٥٠هـ)، أبو جعفر الطحان، وهو من الشخصيات المؤثرة كثيراً في توضيح معالم فقهِ أهل البيت عليهم السلام وعقيدتهم والدفاع عن

الفكر الرسالي، وقد كان يمثل في الكوفة الفقيه الأوحيد لكل المذاهب وليس للشيعة فقط، فقد أرجع الإمام الصادق (عليه السلام) قسماً من أصحابه الفقهاء للأخذ منه كما في خبر عبدالله بن أبي يعفور، قال: قلت لأبي عبدالله (عليه السلام) أنه ليس كل ساعة أفتاك ولا يمكن القدوم، ويجيء الرجل من أصحابنا فيسألني وليس عندي كلما يسألني عنه، قال: فما يمنعك من محمد بن مسلم الثقفي فإنه سمع من أبي وكان عنده وجيهاً<sup>(١٥)</sup>، وقد تتلمذ محمد بن مسلم أولاً عند الإمام الباقر (عليه السلام)، وكان كثير السؤال عن كل أمر حيث قال ما شجر في رأي شيء قط إلا سألت عنه أبا جعفر (عليه السلام)، حتى سألته عن ثلاثين ألف حديث، وسألت أبا عبدالله (عليه السلام) عن ستة عشر ألف حديث<sup>(١٦)</sup>.

وقد أهلت هذه الأحاديث التي حفظها من الإمامين (عليه السلام) محمد بن مسلم كي يصبح الفقيه الأول في المجتمع الكوفي التي ضج في نفس الفترة بفقهاء كبار مثل محمد بن عبدالرحمن ابن أبي ليلى (ت ١٤٨هـ)، وشريك بن عبدالله بن أبي شريك (ت ١٧٧هـ)، بل رؤساء لمذاهب كالنعمان بن ثابت أبو حنيفة (٨٠-١٥٠هـ)<sup>(١٧)</sup>، وغيرهم الذين كانوا يعترفون بمكانة هذا الفقيه ويرجعون إليه في كثير من المسائل التي لا يملكون أجوبة شافية عنها، كما حدث لأبي حنيفة إمام المذهب الحنفي الذي يُعد أكثر المذاهب الأربعة انتشاراً، فعن محمد بن مسلم، قال: إني لنائم ذات ليلة على السطح إذ طرق الباب طارق فقلت: من هذا؟ فقال: شريك يرحمك الله، فأشرفت فإذا امرأة، فقالت: لي بنت عروس ضربها الطلق فما زالت تطلق حتى ماتت والولد يتحرك في بطنها ويذهب ويجيء فما أصنع؟ فقلت: يا أمة الله سئل محمد بن علي بن الحسين الباقر (عليه السلام) عن مثل ذلك، فقال: يشق بطن الميت ويستخرج الولد، يا أمة الله افعلي مثل ذلك، أنا يا أمة الله رجل في ستر من وجهك إلي؟ قال، قالت لي: رحمك الله جئت إلى أبي حنيفة صاحب الرأي فقال: ما عندي فيها شيء، ولكن عليك بمحمد بن مسلم الثقفي فإنه يخبر، فمهما أفتاك به من شيء فعودي إلي فأعلميني، فقلت: لها أمضي بسلام.

فلما كان الغد خرجت إلى المسجد وأبو حنيفة يسأل عنها أصحابه ففتحنت فقال: اللهم غفراً، دعنا نعيش<sup>(١٨)</sup>.

وكغيره من الشخصيات البارزة في المجتمع الكوفي، نال محمد بن مسلم قسطاً وافراً من عداة التيارات الاجتماعية والفكرية السائدة آنذاك، ولهذا وردت فيه ثلاثة أقسام من الروايات، التي تعرضت، وهي كما يلي:

١ - النصوص التي ليس فيها مدح ولا ذم، فهي ساكتة عن التعرض لحال هذا الفقيه.

٢ - النصوص المادحة والتي تشيد بمكانته العالية.

٣ - النصوص والروايات التي تدم وتقبح في شخصيته أو إيمانه وفكره.

لكن الروايات التي تتعرض لمحمد بن مسلم بالذم والتهوين من مكانته ولما يحمل من فكر (مخالف) لأهل البيت عليهم السلام ضعيفة بجبرئيل بن أحمد، ولو سلمنا صدورها فهي على القاعدة العامة التي يمكن استكشافها من خلال تتبع أحوال الشخصيات البارزة في المجتمع الكوفي التي وجه إليها سهام النقد والعداء، فكانت هذه النصوص صادرة للتخفيف من الضغوط التي توجه له ولأمثاله، كما أن الأئمة عليهم السلام قد مارسوا هذه الطريقة في علاج حالات العداء من التيارات الفكرية في الكوفة أو من السلطات المستبدة التي تترصد للشخصيات الرسالية وبالأخص تلك الشخصيات التي تقوم بدور كبير في الأمة، وعند توجه الذم من الإمام الصادق عليه السلام، فإنه ولا شك سوف يصل لعيون السلطة التي تترصد لكل صغيرة وكبيرة، وصدور مثل هذا الأمر وسماع السلطة به يوهمها أنه مخالف لذلك التوجه الذي تتحين الوقت المناسب لضرب شخصياته أو تسقيطهم اجتماعياً □ □

## الهوامش:

- (١) كني، الملا علي، توضيح المقال في علم الرجال، الطبعة الأولى، سنة النشر ١٤٢١هـ، المطبعة سرور، ص ٢٩
- (٢) المصدر نفسه ص ٣١
- (٣) المصدر السابق.
- (٤) البحراني، الفقيه المحدث الشيخ يوسف، الحقائق الناضرة في أحكام العترة الطاهرة، الطبعة الثالثة، تاريخ النشر ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م، دار الأضواء ج١ ص ٥٧.
- (٥) الداوري، تقرير لبحث آية الله الحاج الشيخ مسلم، أصول علم الرجال بين النظرية والتطبيق، المقرر محمد علي المعلم، الطبعة الأولى، تاريخ النشر ١٤١٦هـ، ص ٨١-٨٢.
- (٦) الطوسي، أبي جعفر محمد بن الحسن، اختيار معرفة الرجال المعروف بـ(رجال الكشي)، تحقيق وتصحيح محمد تقي فاضل المييدي و أبو الفضل الموسويان - طهران، وزارة الثقافة والإرشاد،
- مؤسسة الطباعة والنشر ١٤٢٤هـ، ص ٢١٧.
- (٧) المصدر نفسه ص ٢١٩.
- (٨) المصدر نفسه ص ٢٨٣.
- (٩) المصدر نفسه ص ٢٤٦.
- (١٠) المامقاني، العلامة الرجالي عبدالله، تنقيح المقال في علم الرجال، ج ١ ص ١٦٦ نسخة مخطوطة.
- (١١) المصدر نفسه ج ١ ص ١٦٥-١٦٦.
- (١٢) اختيار معرفة الرجال، مصدر سابق ص ٢٨٥.
- (١٣) المصدر نفسه ص ٢٨٦.
- (١٤) المصدر نفسه ص ٢٨٥.
- (١٥) المصدر نفسه ص ٢٣٩.
- (١٦) المصدر نفسه ص ٢٤٠.
- (١٧) راجع كتاب، تاريخ الكوفة للمؤرخ الشهير السيد حسين بن السيد أحمد البرقي النجفي، الطبعة الرابعة، تاريخ النشر ١٤٠٧هـ، دار الأضواء.
- (١٨) اختيار معرفة الرجال، مصدر سابق ص ٢٤٠.